

ورحل عقاب العربية !!

بقية المتقدمين من السلف العظيم ، جابرة اللغة والفكر ، والرأى ، والغيرة النبيلة ، لا تتكرر له نظائر فى الجيل ، ننعاه اليوم إلى هذه الأمة الصامدة فى زعازع الهوية والبقاء ، إلى عالم الكلمة الحرة الجرئية ، عالم الأريحية والفداء ، بقية مما ترك صادق الرافعى والعقاد وإخوان هذا الطراز فى مسحة واحدة .

إنه محمود محمد شاعر (أبوفهر) وكفى !!

وحسب هذه الأمة أن تذكر اسمه مجرداً من أى لقب أو منصب ، فهو أكبر منهما فتذكر التضحية فى سبيل الرأى والإيمان به ، مجردة من المآرب والمنفعة، وهل ثمة أكثر ممن يؤمن برأى فيدع الجامعة - وهى غاية الأمنيات آنذاك - ليزود عن هذا الرأى - عملاً لا قولاً فقط - طوال حياته ؟

حياة طويلة عريضة ، ولكنها أعظم أثراً أن تحسب بالأيام والسنين ؛ حيث تمتد هذه الحياة فى أعراق هذه الأمة ، وفى صميم وجودها ، ولعلها تفتن الآن أكثر حين ترى مانبها إليه أبوفهر بمقرعته الغليظة منذ العقد الثالث من هذا القرن ، وتراه رأى العين الآن !!

عرفته من أكثر من ربع قرن شخصاً ، وعرفته قبل هذا التاريخ قارئاً له مقالاته فى الرسالة تهاجم لويس عوض ، فلما رأته صدق السماع الرؤية ، رجل فى أواخر العقد السادس ، ولكنه يتفجر حيوية وشباباً ، أسبقنا إلى كتاب ، يستوثق من خبر أو شاهد ، فيصدق الكتاب ما يروى ولكنها الدقة الشاكرية ، التى لم يتخل عنها وشواغل المرض تنتهيه .

وربما خطر لبعض الناس أن الرجل حبيس داره وكتبه وهو وهم ، لأن داره جامعة حج إليها مريدوه وهم كثر ، فوحدته مأنوسة ، وهو أيضاً يسع قلبه وعقله العالم كله ، يعشق الفن ويطرب له ، ولقد سعدت بصحبته فى إسبانيا منذ

عشرين سنة ، وتحولنا فى الأندلس الإسلامية حتى فى القرى ، وكنا نذهب كل مساء لمشاهدة الغناء والرقص الشعبى (الفلامنكو) وهذا الرجل الوقور يستميله الطرب ، فيهتز اهتزاز الكريم ، ويستعيد ، ونعود معاً فى الربع الأخير من الليل ، فنقرأ صفحات من الحماسة كنت أناوشه بشقاوة الشباب ، فيفسح من صدره مرات ويضيق بمجادلتى مرة ، ويسمعنى ما أحب من لذعاته فلا أسكت .

فى عيد ميلاده التسعين (بالحساب الهجرى) أنشدت قصيدة فى المناسبة ، كان الداء قد تمكن منه ، ولم يتمكن من عقله المتوهج ، ونظرات العقاب النافذة ، وإن عاق الريش أن ينهض ، كانت - وما أقسى كانت - صورة العقاب الذى يهرم ولايستكين ، هى الصورة التى رأيتها منذ عرفته ، لم تغيرها الأيام ، وهى صورة العقاب الذى يحرس العربية بوجوده ، لأن الأمان الذى يبثه جدير أن يغنم ثقة النفس وأملها فى المستقبل . لقد كنا نذهب إليه والإحباط آخذ بالأنفاس ، فإذا بنا نعود وعقولنا ومشاعرنا تطاول السماء .

شيخى العظيم :

ستظل غيرتك على الأمة ولسانها تغنم معارك ، وتثير معارك ؛ لأنها غيرة الضمير الحى ، والعقل الحر ، لايفارقك الولاء والعداء ، والوفاء والجفاء ، وسيفيك الغد حقك ، إن قصر يومك وأمسك ، رحمة الله عليك من راحل ، لايرحل عنا حبه وذكره ، ورحمة الله لنا من آسفين ، ذاكرين ومحزونين .

محمود الطناحي إنساناً

وهل يستطيع مثل محمود الطناحي إلا أن يكون إنساناً ؟ لقد استغرقت الإنسانية ، فلم يفلت من نياطها على المستوى الشخصي والعلمي ، وكأين من علماء أو أساتذة يداير علمهم إنسانيتهم ، فيكونون نكالا على أنفسهم وعلى العلم .

وإذا حددنا العلم هنا بالدراسات الإنسانية ، ومنها علوم العربية والإسلام ، فإن الطناحي في قنة باذخة من الإنسانية ومن هذا العلم أيضاً ، ومع أن المفروض أو المتوقع أن تكسو هذه الدراسة صاحبها شية خاصة من الإنسانية ، فإن القاعدة تتخلف أحياناً كثيرة على مارأيانه من مشاهد الحياة ووقائع العشرة ، بيد أن محمود هنا تدستت إليه هذه المعارف ، فشاطرت فطرته التي ذراه الله عليها .

ولد الطناحي في قرية «كفر طبلوها» مركز تلا من أعمال المنوفية ، وثمة مثل يتداوله أهل هذه المنطقة عامة يقول : «إذا ضاع في الدنيا حفظ القرآن فلا يضيع في كفر طبلوها وزُرْقان» ، وبينهما وبين قريتنا «طوخ دلكة» قِدَى رمح ، وليس لقريتنا مثل هذه الشهرة في هذه الخصلة الكريمة ، ويذكر المرء طائفة من علماء الأزهر خاصة من هاتين القريتين .

ولمن حفظ القرآن كالطناحي ، ودرس علوم العربية والإسلام سمت خاص ؟ إذا أثرت فيهم هذه الدراسة وقد أثرت بالفعل في فقيدنا العزيز ، ليس على المستوى العلمي ، وهو في ذؤابته ، بل في تصرفاته ، وخصاله الشريفة من النبل والأريحية وسعة الأفق ، وبعض أهل الأزهر أو التربية الدينية لهم سمة خاصة ، كالطائفة الاجتماعية بين طوائف المجتمع ، وفي كثير منهم عزلة وربما غربة عمن يعاشروهم من أهل التعليم المدني ، ربما تدفعهم إلى شئ من الانغلاق ، حاشا من كان على شاكلة محمود ؟ إذ أتيج له أن يتفتح منذ الصباح الباكر على القاهرة ، وأن يندمج في مجتمع دار العلوم ، وهو وسط بين تعليم الأزهر ، والتعليم

المدنى، وهكذا كانت ثقافة الطناحى ، والحقيقة أن التراث الحقيقى كما فقهه صاحبنا لا يدع للانغلاق سبيلاً ؛ لأنه يقرأ هذا التراث ، وفيه إحاطة واسعة بالشمائل الإنسانية السوية التى لاتغفل ولا تغلق نوافذ الحياة ، ويمكن أن يكون ما أطلق عليه الفقهاء قديماً «الإحماض» وسيلة إلى هذه البابة الرحبة ، إذ لم يتحنت تحنت الفقهاء من رواية الشعر وتصويره لكل الجوانب الإنسانية حتى الجانب الماخن منها ، وقد راض الفقهاء هذه البابة وأبدعوا فيها شعراً نفيساً .

أما القشور التى تدرس من هذا التراث . . فهى مدعاة إلى هذا التحرج الذى نلمسه فى المسطحين من المتسبين إلى هذا التراث ، وما كان فيه من عيب ، إلا فى أنفسهم .

كانت إحاطة محمود بالتراث الحقيقى ، حيث العربية كتاب واحد ، إحاطة مذهلة ، لاتوازيها غير إنسانيته الرحبة والمذهلة فى الوقت ذاته ، لم تصبه آفات المهنة بما تصيب نظراءه ، وإن كان قليل النظر ، من أدواء الحسد والتنافر ، وتدبير الدسائس ؛ إذ كان الرجل بعيداً عن هذا كله ، غير أنه ليس بعد الغفلة ، بل بعد الفطنة واللقانة التى تثير فى نفسه الأسى والإشفاق ، وربما بسمه السخرية ممن يتذاكون عليه وعلى نظرائه ، تجرد الرجل من آفات المهنة ، حيث تجاوزها برحابة أفقه ، حين تحتجن رصفاء قيودها وآصارها الشقيلة كان يشعر بالزهو - وهو المتواضع - أو الباخع نفسه أحياناً - أن تجرد للعلم والنظر والمذاكرة كما كان ينعتها .

عرفته منذ سنوات طويلة خلت ، فما جربت عليه كذباً قط ، وإن كان الكذب الأبيض ، رجل شديد الصدق مع نفسه ومع الناس ، بل ومع الأشياء ، شديد الإلف ، ولعل ألفته مع المخطوط منذ بداياته الأولى ، جره دائماً إلى ماتعارف عليه الناس «بالأصول» ؛ فالأصل عنده بالمعنى الاجتماعى والعلمى له مكانة ملحوظة وخطيرة فى تعامله مع الناس والأشياء ، وصدقه - فطرة - صاحبت صدقه مع المخطوط وتحقيقه ، فالتقى صدقان موهوب ومكسوب ، وهو باحث دائماً عن اللباب فى مسلكه الحياتى والعلمى ، فلاتخذعه البهرجة فى المشاعر ولا فى الكتب ولا فى مؤلفيها ، يحتشد للقائك احتشاده للكلمة المقروءة والمسموعة ،

وله بصر يعرف الحُبء وإن كان يخيل إليك أنه لا ينظر ، لأن البدهة عنده قويت ، فتعمل عملها كأنها لاتعمل .

ومن يوم أن التقينا لم نفترق مشاعر وفكرًا ، وإن كانت أسفاره وأسفارى حجت لقاءنا أشباحًا وظلت أفكارنا ومشاعرنا فى عناق أبدى ، وكأنها الأصرة السماوية التى توشج بيننا ، حتى وإن اختلفنا قليلاً .

والطناحى من ذلك النفر النادر ، الذى يعرض عليه صديقه بالنواجذ ، إذ كان هو مع أصدقائه كذلك ، وهو منى بمنزلة الأخ الأكبر ، لكننا نشعر أن مودتنا محت أقياد السن ، وزاد من هذه الأصرة السماوية ولاؤنا لعقاب العربية أبوفهر محمود محمد شاكر - برد الله مضجعه - وما يمثله من غيرة على اللسان العربى ، وعلى كل تراث هذه الأمة ، وكنا نحس أن كلينا يكتب للآخر ، أو يفكر فيه حين الكتابة ، ونختار لذلك بعض الغريب ، أو هو يختارنا لأننا نحس أننا نكتب كتابة مخالفة ، ولذلك حين ينشر أحدنا شيئًا ، نتهافت معلقين ، ويظرب كل منا حين تقع القُذَّة على القذة ، وندرك فى التو أن الرسالة وصلت ، وأن العربية تختال حين تجد من ينث فى هوامدها حرارة الحياة ، وكان محمود يزيد عنى فى انهمال العبرة ؛ حين يستمع إلى شعرى وإن كان الموضوع غير حزين ، لأنه يتظرب إلى صورة دقيقة ، أو جملة محكمة ، وما استطاع أن ينوب عنى فى إنشاد قصيدتى عن شيخنا أبوفهر فى تأبين جامعة الأزهر له ، حين حالت حوائل أن أشارك بشخصى ، وليس فيما أرويه شبهة بأو ، إذ كانت عبرته قبل كل شئ على ضياع «البيان» فى جيلنا ، وكيف نظمى روعة العربية بدعاوى النزوات الطائشة ، ولمحمود قُدرة فذة على تمييز الكلام والبصر به ، ومن ثم كان حزنه وأساه .

ومحمود من ذلك النفر القليل الذى نحب العربية فى مقاله وكتابه ، لأنه ينطق نطقًا مكتملاً ، ويكتب كتابته هو ، وإن كان فيها أثارة من كلام قديم ، لأن هذه الأثارة ملكنا نحن ، ونسفق من رصيدها ، ولانظمس هويتنا ، ومن ذلك النفر شاكر والجارم والعقاد والمازنى فى كتاباتهما الباكرة . ولم يكن منه أبدًا مصطفى صادق الرافعى ، وهنا كنا نختلف اختلاف الرأى لتتفق فى شعور ، وكنت أرى الرافعى فى غير موضعه الذى يحله فيه شاكر ، والطناحى .

وكان فى محمود عيب ظاهر وإن حاول ستره ، وهو فرط ثقته بالناس ، وحمله لهم على محمل الخير دائماً ، وربما أشاركه فى هذا العيب ، وإن كنت أخادع نفسى فأثفيه عنى «ولا يخذع المرء سوى نفسه» ، وحين كان يجد أن ثقته فى غير موضعها ، يأسى قليلاً ، لئلا يفقد هذه الثقة ، وأن الأمر عنده على بابه ، وأن انعدام الثقة لديه أنكى من عواقب الثقة المخدوعة ، وصبر محمود وصابر على كثير من هذه المواقف ، وترك حقه الشخصى يتحيفه جور رصفائه ، وليس لهم نقاء سريرته ، بل فيهم لؤم النحائز ، وارتكاسة الخيم الذميم ، وركن إلى «بيانه» المشرق ، يضىء له وللناس ، وأبى بأوه أن يسوقه سوقاً إلى مالا يود ، وكان فى ذرعه أن يرد الصاع صاعين كما يقولون ، لكن كان حسبه أن يقول «لن ندخلها أبداً ماداموا فيها» ، وهم ليسوا فيها ولن يكونوا أبداً ، ومثل محمود منها فى الصميم وإن كان بعيداً ، إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، وإن موقفه وموقف قرئانه معه لتصحيح لمقاييس أدخلت بها تقاليد النذالة ، وهى غير عسية بالمناجزة ، يشيع فيها الصغار ، ومن هنا كان بأو محمود وصرامته .

ولقد اجتمعت للطناحى خليقتان تبدوان فى الظاهر متباينتين : خليفة الجد الصراح ، وخليفة المرح الصراح كذلك ، واحتفظ صاحبهما بمواطنهما إلا حين تغلبه القافية والقافية تحكم ، وقد مكنت الخليقتان له قبولاً لدى الناس ، فلا يكرهه إلا لئيم الخيم نزر المحامد : الفئة الباغية ، التى لاترى الضوء ولا يروق لها أن تراه ، وكان هو الرابع على المدى البعيد ، وكانوا هم الأخرسين أعمالاً على المدى القريب والبعيد ، حين ألصقوا به تهماً لاهو منها ، ولاهى منه ، وكان مبلغ قولهم إنه سلفى يعنون بها ولاءه للجماعات الإسلامية ، التهمة الشائعة هذه الأيام ، والحق أن الرجل ومن والاه ، ليس لهم ولاء لهذه الجماعات ، ولا حتى الشيخ العظيم أبوفهر ، بل إنهم أقرب إلى مناجزة هذه الجماعات ، أكثر من المتاجرين بمناجزتها ؛ لأننا نناجزها آيبين إلى المنطق والفكرة السوية ، على حين تكون النفعية رائد الفريق المتاجر .

ومرح الطناحى هو المرح الموقع ، الذى يفتن إلى منافذ الفكاهة ، حين تفضح خلل القياس ، دون أن يشوبها ما يشوب الفكهين من خفة ونزق ، لا يعرفان

مواطن الجد والقداسة ، ولعل فطرة ابن البلد هي التي تضح في أفاكيه الطناحي ، فترقرق أنداء العزاء في برائن الهجير الذي يشوى الوجوه والكبود ، وكانت تسعده قريحته في إطلاق النكتة النافذة ، وكانت بديهته معواناً لهذه القريحة ، بعيداً عن الاشتقاقات اللغوية ، والشقاشق اللفظية لأنها قريبة وسطحية ، وإن كانت تجيء أحياناً نافذة نفاذ الأفكوهة العميقة ، ولا نريد أن نفرع إلى سرد طائفة من نوادره ، التي تتأبى على الحصر بغير عسر ، يقلد أحياناً صوتاً وحركة وهيئة بعض المتظعين من المشايخ أصحاب اللازمة في الحديث والهيئة ، ويزيد محمود المسألة «حبتين» لزوم القافية ، فيخيل إليك أنك تسمع وترى هذه الشخصية ، ولولا أنك في محضر محمود لفركت عينيك وأذنك ، حساباً أنك في غير حضرته ، لتمام المطابقة ، ونحن نعتقد أن هذا التقليد - بجانب الفكاهة النافذة فيه - فهم دقيق لهذه الشخصية أو تيك ، وأن المسألة خرجت من الفكاهة السريعة إلى الفطنة والتحليل العميق وأن النقد يستوفى حظه حين تستوفى الأفكوهة حظها أيضاً .

وتغلبه مصطلحات المهنة ، فيورد طائفة من نوادرها المحفوظة ، يذكر أن طلاب معهد القراءات خرجوا يهتفون للنحاس باشا ، فتغلبهم طبيعة «الإمالة» فإذا بهم يطبقونها في مثل هذه المناسبة ، وهل هناك مناسبة أعظم لإبلاغ إمالتهم المميزة مثل هذه ؟ يقولون : قراء ورش يؤيدون «أبا درش» وهي كنية لمن يسمى «مصطفى» ، وتحكم القافية فتزيد النبيرة حين يهتفون : «يحيى النحيس بيشا» يريدون يحيى النحاس باشا ، وتنال قافيته صحابه الأذنين ، يقف أبوهمام ينشد قصيدته في ذكرى التوحيدى ، فيقدمها قائلاً : «من أبوهمام إلى أبوحيان» فما يكون من الطناحي إلا أن يقول : من أبوهمام إلى أبوحيان ياقلبي لا تحزن» .

وطبيعة محمود التسامحة الودود في غير الحق والعلم هي التي تملئ هذه المواقف الآن ونظائرها كثير ، وهي التي تقطر طلا على الأكباد الوارية ، فتأبى أن تكون المناسبة حزناً محضاً ، أو لعلها طريقة طناحية في الشعور بالحزن حين يتسرب إليه وشل من المرح ، ولعلنا نردد ما ارتجله العقاد يوم نعى حافظ بك إبراهيم :

«أبكاء وحافظ فى مكان تلك إحدى طوارق الحدثنان
كنت أنسأ فكيف أصبحت يا حيا فظ تدمى لذكرك العينان»

ووضع «محمود» موضع «حافظ» لا ياباه مهيع العروض ولا مهيع محمود ، مع
قليل من الزحاف المحمود . وصفحة محمود الطناحي صفحة باقية ، كلما قلب
المرء صفحة من صفحات الطروس أو صفحات النفوس ، وإنما لرابحون لأنفسنا
على سنة الوفاء ، حين نفى لك .

وإننا إلى الله راجعون لقد غال الردى سيرة من السير ، وإنها لسيرة إنسانية ،
تملى نفسها بميزانها المحقق ، لاجمزان «اذكروا محاسن موتاكم» ليقول فيها الصديق
ما ياباه المحقق ، أما أبو همام فيردد ما كنت تردد .

«ما فى الصحاب أخو وجد نظارحه حديث نجد ولا صب نجاريه»

«سلام على إبراهيم»

بقية المتقدمين من جماعة أبوللو ، ووارث المدرسة المصرية من شعراء الرقة العاطفية ، الذين تحدروا من أصلاب البهاء زهير ، وإسماعيل صبرى ، ويمتد نسبهم إلى العباس بن الأحنف وإخوان هذا الطراز . .

إنه الشاعر إبراهيم عيسى ، الذى رحل أخيراً ، وفى نفوس محبيه أسف لاذع ، ومحبي شعره وطريقته حزن على صوت أصيل يتوارى والساحة غاصة بأوشاب الكلام المهزول ، والسوق نافقة مظهرًا ، شديدة الكساد مخبرًا .

جاء الشاعر إلى الدنيا سنة ١٩٢٧ ، وهى فترة الإرهاصات الشعرية ، شهدت فورة هائلة لدواوين الشعراء من جماعة أبوللو أبو شادى ، وصالح جودت ، وناجى وأقرانهم ، وكان لايزال يتردد صدى «الديوان فى الأدب والنقد» للعقاد والمازنى ، ومبايعة شوقى بإمارة الشعر ، ورحيل إسماعيل صبرى ١٩٢٣ ، والحياة السياسية والاجتماعية آخذة بالخناق ، عاش الشاعر فى تلك البيئة ، فتركت أخايدها فى قسما ت نفسه ، وتخرج فى كلية التجارة كشأن قرينه صالح جودت فلم تلهه التجارة عن تجارة الشعر ، ولبى إبراهيم عيسى عرائس الإلهام ، قبل أن يلبى عرائس الأرقام ، إذا كان لها عرائس ، محتشدًا لما نذر نفسه له حتى آخر لحظات حياته .

ولم يكن من الممكن للشاعر أن يخرج عن إهابه ففدا صوتًا مفردًا فى حديقة أبوللو ، ولانقول فى غابها ، حيث لا صبر له ولا لهم على مطاولة لواعج الغابة ووحشتها ، وحسبه وحسبهم أن يغنى فى حديقة مأنوسة أهلة يطرب للتنسيق والرقة ، وتتعلق خواطره بجمال فاتنة الحديقة ، يأنس إليها وتأنس إليه ، ويجد فى لواذها ما يهدد مشاعر شاعر «أبوللوني» .

وإبراهيم عيسى من الشعراء المطبوعين على التألق مظهرًا وشعرًا ، وربما يخيل
١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠

أن يدرك أن الأناقة تتعمق ، حيث تشرئب إلى سبحات الروح في معراجها الأسمى ، وحين يطل على هوة أحزانه ، أو يتطلع إلى شرفات أفراحه فيعرف أن العمق الأنيق في محله المحتوم .

إبراهيم عيسى مغبون ، وربما كان مسئولاً عن بعض هذا ، حيث حجب شعره فلم يجمعه في دواوين ، وإن كان قد التفت أخيراً فجمع بعضه في ثلاثة دواوين ، وبقي عنده رصيد هائل يحتاج إلى جمعه ، خدمة للشعر وتاريخ الأدب ، لكنه غير مسئول عن بعض آخر ، حيث شهدت حياته حركة الشعر الحر ، فاستعصم بيقينه في الشكل الموزون المقفى ، وأبدع فيه غير عابئ بصرخات التفعيلة ، وما يسمى بقصيدة النثر .

وينبغي ألا يغيب عن البال أن آخرين زلزلتهم هذه الحركة وتوابعها ، وخشوا الاتهام بالتخلف ، فتابعوها ، خاصفين على مايكتبون من ورق التفعيلة أو النثر ما يوارى سواة الوزن !! وغدا أكثرهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء !!

كما ينبغي أن ندرك أن القصيدة الموزونة المقفاة المعاصرة ليست قصيدة واحدة ، وهؤلاء النظامون أخطر على «الشعر» من التفعيلة ، والنثر ، ولم يكن إبراهيم عيسى من هؤلاء .

«سلام على إبراهيم» حين نعود إلى تراثه الشعري ، فيحیی الثقة بالكلام الموزون المقفى ، وحين نستحضر شخصه - وهو حاضر - فنعود بذخيرة من الإنسانية العذبة ، والرقة التي تنعقد جمالاً ومودة .

د. محمد عيد وداعاً !!

بقية المتقدمين من شيوخ اللغة والنحو والأدب ، يتحدر من تلك الأصلاب الكريمة ، التي وقفت على ذخائر تراثها فقهاً ودُعيًا ، حتى غدا هذا التراث ساريًا في خلاياه دون شطط ودون ذوبان ، بل إنه فقه هذا المذخور الكريم ، مع حفاظه على نفحة شخصية ، سرت في كل ماكتبه من كتب ومقالات .

كان المأمول أن يُنسأ له في أجله ، لكنه غُوضِرَ دون أن يفيد منه أبناء هذا الجيل ، أكبر إفادة ، وإن كان قد أخذ نصيبه منه أكثر من ثلاثين سنة يدرّس ويوجه طلابه في الدراسات العليا ، ويؤلف وكأنه كان يحس أن الرحلة - وإن طالت - قصيرة ، فملاً حياته علمًا باقياً لهذا الجيل الذي يضمن بما خلفه له الأستاذ .

وكأين من علماء راسخين لا يسعدهم خلق كريم ، وسلوك قويم ، لكن الراحل الكريم كان غمطاً فريداً في سلوكه المهذب الراقى ، طيبة قلب ، وسماحة نفس ، وكان باطنه خيراً من ظاهره ، وكأنه كان يخشى أن يعلن دائماً عن هذا الباطن الوثير ، فيتهم بالضعف واللين ، غير أنه كان يخفى وراء هذا الظاهر الخشن أحياناً - في الحق - مهاداً من العطف والودادة ، يبذلهما لمن يستحق أن يعرف هذا الباطن ، وأن يقدره حق قدره ، كان يظلمه ظاهره ، وماكنت أحسبها تلك الخلة إلا مرارة الجد الصارم والزهادة فيما سوى العلم والتوحد معه ، والرجل لا يتفلسف من نياطهما - حتى مع نفسه - وكانت تلك المرارة والجد يذوقها قبل غيره ، وحسبه هذا صدقاً مع النفس .

ولد محمد عيد في كفر حجازى من أعمال المنوفية ١٩٣٢ وتلقى دروسه بعد حفظه القرآن الكريم فى الأزهر ، والتحق بدار العلوم ، وتخرج فيها سنة ١٩٥٨ ، وحتى رحيله كان لا يكف عن طلب المعرفة والدرس ، ينفق الليالى ذوات العدد فى المفاتشة والمراجعة ، وهو وإن تخصص فى اللغة والنحو ، فقد توسل إليهما بالأدب ذوقاً ودرساً كان حجة فى الشعر حفظاً وتأويلاً ، أو رواية ودراية ،

ونحسب أنه لا يوجد نحوى على شئ إلا وهو ضارب بسهم فى الشعر والأدب ، تشهد بذلك كتبه فى النحو ، والدرس اللغوى الحديث ، وقد درس ابن مضاء القرطبى لكنه لم يسر معه إلى نهاية الشوط ، بل استطاع محمد عيد أن يوازن بين الشطط والجمود ، فأحسن الاعتدال والاتزان ، وكان كتابه «النحو المصفى» كاسمه نطقاً من التأليف فى النحو المتأدب ، مفيداً من شيوخ النحو فى العصر الحديث كالشاعر اللغوى على بك الجارم ، وعباس حسن ، تلك الإفادة التى تحسن أن تهتدى وتقتدى ، وسوف يظل كتابه مع الجارم وعباس حسن معلماً بارزاً .

أما الصديق محمد عيد فكان الود منخولاً ، والنقاء موصولاً ، عرفته أول عهدى بدار العلوم ، فكأنى أعرفه من آن بعيد ، خلطنى بنفسه وخلطته بنفسى ، وشقيت بمن يجافيه ، وكنت أرى صفاءه وشموخ همته حيث لا يرون ، والرجل بطيبته لم يتصور أن فى الدنيا لؤماً ، أو كان يتصوره ويود أن يغيره ، ولا يتغير هو حيث يكون اللؤم شرفاً ، وعانى كما يعانى الشرفاء فى كل الأزمنة الكابية ، ودفع الضريبة من نفسه ، راضياً مرضياً .

أيها الصديق الحبيب أبا خالد : سلام عليك ، لقد عانيت ، فلتهنأ الآن مع الأصفياء الأوداء ، وسلام علينا بعدك حيث يعز العزاء !!

«جرانخا الشنتمرى» المستشرق الإسباني الراحل

من طليعة شيوخ الاستشراق فى إسبانيا ، ومن أكثرهم عكوفاً على ثقافتنا العربية الأندلسية ، تاريخاً وحضارة ، وفكراً وأدباً ، ومن أشدهم إخلاصاً لهذه الثقافة ، وإنصافاً لتاريخها وأهلها ، انتهت إليه رئاسة الدراسات الأندلسية بعد رحيل عواهلها الكبار : أسين بالاثيوس ، وانخل جونثالث بالثيا ، وخولييان ريبيرا ، وغريشيه غومث ، والأستاذ فرناندو دى لاجرانخا الشنتمرى . كما أحب أن ألقبه بلقبه الثانى Santa maria ، وهو تليق صادف أهله ، لأنه يذكر بالأعلم الشنتمرى فى تقصيه وإحاطته ، ورغبة فى ربط الخالف بالسالف . تخرج الراحل العزيز فى جامعة مدريد سنة ١٩٥٢ ، وابتعث إلى القاهرة كحال أستاذه غومث من قبله ، حيث تتلمذ على يد طه حسين وأحمد زكى باشا ، وحين عاد عمل أستاذاً للعربية وأدبها فى كلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد ، وعين عضواً فى مدرسة الدراسات العربية ، ورئيساً لتحرير مجلة الأندلس ، بعد اعتزال غومث العمل الرسمى ، وواصلت المجلة رسالتها فى عهد جرانخا أحسن ما يكون التواصل والأداء ، حتى احتجبت مؤخراً عن الظهور ، على الرغم من أنها من أرقى المجلات المتخصصة على المستوى العالمى .

وللمستشرقين الإسبان وغيرهم ولع بدراسات قديمة يقفون جهدهم عليها ، وربما لايعيرها العرب كبير اهتمام ، مثل الزراعة ، والمطبخ ، حيث كانت رسالة جرانخا للدكتوراة عن المطبخ المغربى فى العصر الوسيط ، وتعد مصدراً مهماً لهذا الفرع من الدراسة ، حيث لاتقف لدى المصطلحات المطبخية ، بل تتعدها إلى دراسة الحياة الاجتماعية لأهل المغرب ، وحضارتهم فى أبسط صورها وأعمقها فى الوقت ذاته .

ووقف الأستاذ جرانخا حياته على الأندلس ، وكأنه الراهب فى الدير ، ويمتلك من أدوات البحث والنظر مايعز على نظرائه ، فهو عميق المعرفة بالعربية ،

واسع الإدراك لتاريخ الأندلس ، ولديه إنصاف وموضوعية ، عصمته من شرك التسمم الفكرى الذى يلابس بعض بنى جلده ، ، كما أن مكتبته الخاصة من أندر ما رأينا من مكتبات فى بيوت الأساتذة ، وله فهرسته الخاصة به ، كان بإيجاز يحيا حياة عالم متجرد للبحث ، يلابس حياة الناس بقدر ، ومن ثم كان نتاجه غزيراً ، وكون جيلاً من تلاميذه الإسبان والعرب ، يحملون له أطيب الود والامتنان .

أخرج الرجل تحقيقاً علمياً دقيقاً لكتاب تحفة المغرب ببلاد المغرب للقشتالى ، وألف مجموعة من الكتب فى صدارتها مقامات ورسائل أندلسية (ترجمناه إلى العربية) وهو أول كتاب عن المقامات فى الأندلس ، ووجد صداه لدى راشيل أرىى المستشرقة الفرنسية ، ورجع فيه مؤلفه إلى مخطوطات لم تكن قد نشرت بعد ، وهو عارف مجيد بالمخطوطات الأندلسية ، وبخطوطها العسيرة ، وولج حقل الأدب المقارن ليثبت - بحق - تأثير العرب فى الأدب الإشباني فى العصر الوسيط وحتى الحديث ، وترجمنا هذه الدراسات إلى العربية ، وعسير أن يستشهد مؤرخو الأدب الإشباني بالتأثير العربى ، إلا فيما لا يجدون له أصلاً ولو شارداً فى آداب الأمم القديمة ، لكن جرانخا كان يرد بأمانة على هؤلاء الكتاب موضحاً الأثر العربى ، ويتقصاه فى مظانه المشرقية والأندلسية ، فى إحاطة مذهلة ، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، فربما يقرأ المرء نادرة فى الأدب العربى وينسى مصدرها حين يجدها تكاد تكون مترجمة بالحرف إلى الإسبانية ، غير أن جرانخا كان يهتدى إليها حيث فهرسته الدقيقة والمستوعبة ، وحافظته اللاقطة .

ومعلوم أن الاستشراق الإشباني - فى مجمله - يكتب ومايتفق مع التيار السائد فى بلده ، مثل كل استشراق آخر ، ومن ثم تكون شهادة رجل مثل جرانخا للثقافة العربية لها وزنها العظيم .

ومعلوم كذلك أن المستشرقين الإسبان لا يحظون بالشهرة حظوة النقاد والمبدعين الإشباني ، حيث يعيش أصحابنا فى منطقة الظل تقريباً ، ومن يتجاوزها فإنما يتجاوزها بغير الاستشراق ، وعلى حساب العلم والتجرد له فى كثير من الأحيان ، ولذا كنا نلحظ مرارة رجل مثل غومث ، مع أنه حقق شهرة عريضة فى العمل

والعلم ، لكنه كان يعتقد أنه كان يمكنه المزيد منها لو لم يكن مستشرقاً ، وكان صاحبنا جرانخا فيه هذه المرارة المألوفة التي تقطر أسى من الزيف الساطى والركاكة الشائعة ، رغم أنه حقق أيضاً فى مجاله ما يعجز عنه أتراه ، وكان الرجل يجد سلواه وعزاءه فى البحث ، وفى الركون إلى صاحب يفضى إليه بمكنونه ، وكان كاتب هذه السطور صاحبه فى سنوات طويلة ، وكان يلمس صدقه ، ونفاره من الكذب والتوسط .

ولا أنسى ترجماته للشعر العربى القديم ، وحساسيته للكلمة ، وتواضعه الجم حين يعود إلى أهل هذا الشعر ، سائلاً ومناقشاً ولا أنسى أيضاً نطقه للإسبانية كأنه من أهل التجويد فيها .

كانت جلساتنا مع الأستاذ الياس تيريس - المستشرق الكبير وحافظ تراث الفلامنكو الأصيل والأستاذ جرانخا زاداً ثرياً من المعرفة والفن والود الرحب ، دون مأرب أو منفعة ، غير مأرب المثل العليا ، والأريحية النبيلة ، وقد صوحت برحيلهما دوحة باسقة من العلم والفضل ، لاندرى متى يعود لها صحب وأهل .

شوقى فى الأندلس

الشاعر أدق أعصاب الأمة نسجًا، وأسرعها للمس تنبهاً، وهو يلتقط – أو يكاد – خفايا الضمائر والهواجس، وعينه عدسة لاقطة تنعكس فى صقالها ما يراه ببصيرته قبل بصره .

والرحلة إلى بلد كالأندلس، يمثل فيه التاريخ – تاريخنا حيًا، تتقراه بلمس، قبل أن تطالعه فى الطرس، شواهد حاضرة فى معارف الناس وسحتهم، تتخلل وعيك أردت أو لم ترد، فى الطبيعة، والآثار، ولون بشرة الناس، وأعرافهم الاجتماعية والحياتية، مثل هذه الرحلة تهز أوتار الشاعر اليقظ .

وإذا كانت الرحلة إلى الأندلس غير اختيارية، بل دفع إليها تجربة كتجربة المنفى، كان ذلك أدمى إلى أن تشحذ حس البليد الغافى، فما بالك بشاعر مصقول الإحساس والتجربة

مستطار إذا البواخر رنت أول الليل، أو عوت بعد جرس

لذا كان المتلقى طامحًا، وشديد الطموح فى أن يجد أثر هذه الرحلة الأندلسية، أو المنفى إلى أحشاء التاريخ قوياً وبارزاً.

فهل صنعت هذه التجربة صنيعها الذى نتوقه من شاعر مثل أحمد شوقى ؟

نفى شوقى إلى الأندلس، بعد أن شبت الحرب العالمية الأولى، وكلفته السلطة العسكرية فى سنة ١٩١٥ أن يغادر مصر، لما كان بينه وبين الخديوى السابق عباس الثانى من صلوات وثيقة، قابل الشاعر هذا النفى بارتياح، وصار الأصدقاء يخشون لقاءه، وقد سجل شوقى هذا المعنى فى قوله :

شكرت الفلك يوم حويت رحلى فىا لمفارق شكر الغـرابا
فأنت أرحمتنى من كل أنف كأنف الميت فى النزع انتصابا
ومنظر كل خوان يرانى بوجه كالبغى رمى النقابا

اتصل شوقى بالأندلس منذ أن ركب الباخرة الإسبانية من السويس واصطحب معه أسرته المكونة من عشرة أشخاص، وهو عدد ضخم بالتأكيد عوقه من الاتصال الحميم بالإسبان، إذ نقل مصر معه، وظهر تأثير هذا في شعره وحياته.

كان بالسفينة شحنة كبيرة من الثيران، وإسبانيا تحب مصارعها حبًا جمًّا، ولعلها ورثت هذه الهواية القاسية من أيام العرب في غرناطة بنى نصر، وهى رواية لا تجد أدلة تاريخية تؤازرها، لكن عاصفة هوجاء هبت فما كان من قائد السفينة إلا أن ألقى جميع الثيران، رغم توسلات شوقى، كانت الثيران تحاول العوم، فإذا كلت أسلمت نفسها للقضاء، وهى تصبح صياحًا مؤلمًا. . . منظر فظيع، يتكرر نظيره كل يوم فى حلبات المصارعة والإسبان فى غاية من الحماسة والابتهاج، وأذكر أن أستاذنا أبا فهد محمود محمد شاكر - وهو فى رحلته إلى الأندلس - لم يقبل أن يرى هذه المصارعة، وشاطره كاتب هذه السطور، فما طواعته نفسه أن يذهب إلى الحلبة، ولا أن يشاهد مصارعة كاملة فى الشاشة الصغيرة !!

وصل شوقى إلى برشلونة، وهى من أجمل المدن الإسبانية وكانت أجمل من مدريد آنذاك، كالإسكندرية فى الأيام الخوالى، وأقام هو وقبيلته «أسرته ومربية تركية، وخادمان، وطاه» فى أحد الفنادق عدة أسابيع، واستطاع صديقى وأستاذى الدكتور الطاهر مكى أن يعرف هذا الفندق، وأن يذهب إليه، محاولاً أن يرى اسم شوقى فى سجلاته القديمة، ولم تجد محاولاته شيئاً.

لكن الشاعر ما عتم أن بحث عن منزل استأجره، نظراً لتكاليف الإقامة الفندقية، وتأخر النقود أحياناً بسبب الحرب، وكان يصله كل شهر مبلغ ٢٠٠ جنيه مصرى، وهو مبلغ ضخم جداً بكل المقاييس، وكان المنزل الذى يسكنه كبيراً، وبه حديقة، وكنيسة صغيرة، وهو على شرف من الأرض يطل على البحر المتوسط، أتاح لشوقى أن يرى منظر السفن رائحة غادية «كلما ثرن شاعهن بنقس».

عاش شوقى فى الأندلس يتنفس هواء مصرياً، أو عربياً، لم يياشر الحياة الإسبانية إلا من الخارج، وأغلب صحبه هنالك مصريون، أو أجانب، حاول تعلم الإسبانية، لكن ظلت معرفته بها سطحية، ونطقه لها مضحكاً حسب ما يرويه ابنه حسين، وبرشلونه ليس فيها شىء من آثار العهد الإسلامى، لأن العرب لم يطل

مكثهم فيها، حاشا وقائع كان يقوم بها المنصور ابن عامر، لكن شوقى رأى فيها من المناظر الساحرة ما ينطق غير اللسن، وما زالت برشلونه، ومنطقة قطلوينه بوجه عام من أجمل بلاد الله : البحر، والمطر، والبرد، والخضرة الدائمة والجبال الباذخة، وقد اختارها شوقى مقراً للمنفى، وحسب رجل منفى أن يختار منفاه، أى تدليل هذا !!

لم ينجس على شوقى حياته الإسبانية إلا فراقه لأمه المريضة، وكانت فى حلوان:

كنز بحلوان عند الله نطلبه خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب عزيز عنه غيبتنا لم يأت الشوق إلا من نواحيننا
إذا حملنا لمصر أوله شجنا لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

عقدت الهدنة فى سنة ١٩١٨، ولم يسمح للشاعر بالعودة إلى مصر إلا فى أواخر ١٩١٩. واستطاع شوقى أن يتجول فى إسبانيا كما يشاء بعد انتظام الموارد المالية فزار جزر البليار، ومدريد والأسكوريال، وزار مدن الأندلس فى الجنوب، وأهمها قرطبة وغرناطة وأشبيلية، وكانت له وقفات فنية وتاريخية فى هذه المدن بصورة خاصة، وإن كانت دقيقة وفقه برانية لا جوانية.

يقول شوقى عن رحلته إلى فرنسا لطلب العلم «ثم وصلت إلى باريس، وفيها وجدت نور السبيل من أول يوم».

هذه العبارة توضح إلى حد بعيد تعامل شوقى مع الرحلة ومع الحياة بصفة عامة؛ إذ كيف يستطيع أن يرى نور السبيل من أول يوم وطئت قدماه باريس، إلا إذا بهرته الأضواء الحسية التى تخطف النظر من أول لحظة.

وموقفه من باريس هو موقفه من الأندلس مع بعض الفوارق اليسيرة، لأنه ذهب إلى الأندلس وفى جعبته كثير من ثقافته ومعارفه عن الأندلس وشعره، إنه شاعر ناضج الشاعرية، ممتلىء النفس بابن زيدون، والبحتري، وغيرهما، فلا عجب إذا وجد أمامه «نمطاً جاهزاً» لينسج على منواله، وليعيش فى التاريخ أكثر مما يعيش فى الواقع.

ولعل المسئول عن هذه الرؤية هو الترف المصقول الذى عاشه شوقى فى مصر وفى المنفى، وللنقى مرارة مألحة تجذب طعمها فى شعر الشعراء المنفيين المتناعين، أما نقى شوقى فكان رحلة أقصته فترة عن جوه، وعن معارفه، وعن المعجبين به من رواد المجمع وأحلاس الزحام، لم تكن لنفيه تلك اللوعة الحارقة التى يجدها المرء مع شاعر إسباني كبير، كان يملأ الدنيا أيام وجود شوقى فى الأندلس هو ميغيل دى أونامونو، الذى نفتته السلطات الإسبانية لموقفه الحر البطولى، وتجذب ثمرات هذا النفى فى دواوين كاملة تقيد هذه التجربة يوماً يوماً، وقد هرب إلى باريس من منفاه لكن هذا الهرب قد أوهن جلده بعد الستين، سأل به بلاسكو إبانيت الكاتب البلنسى المشهور : ما الذى يمكن أن يشقاق إليه المرء وهو فى باريس ؟ فأجابه أونامونو مهتاجاً طين الوطن !! لكن هذا المنفى، وتلك العذابات التى تركت أخايد فى نفسه لم تجعله يكل أو يستسلم، بل ظل محارباً فى ضراوة إلى آخر لحظات حياته، يثير القلق، ويهز راكد النفوس بهراوته الغليظة، وكذلك الشاعر رفاييل ألبرتى، وميغيل إنانديث لهما تجربة عميقة فى المنفى وفى السجن.

لكن هؤلاء الشعراء من معدن آخر غير معدن شوقى، ومن الغبن للشاعر المصرى أن نطالبه بأن يكون على غير ما أشرج عليه من الوداعه المطمئنة، والترف المصقول، إن هذا الطراز من الشعراء الإسبان قريب الشبه بطراز العقاد وطه حسين وإخوان هذا الطراز المناجز المتحدى.

كتب شوقى شعراً عن الأندلس ككل شعره معارضاً سينية البحرى، ومتتبعا خطاه وإن كان البحرى - وهو عربى - وقف على إيون كسرى، وشوقى - وهو العربى المسلم - وقف على أطلال الأندلس العربية المسلمة، ومع هذا كان شوقى متعشراً بجانب البحرى، حتى فى المعانى التى حاول أن يجىء بمثلها.

وعلى الجمعة الجلالة، والنساء صر نور الخميس تحت الدرفس

ويقول البحرى فى نفس المعنى :

والمنايا موائل، وأنو شروان يزجى الصفوف تحت الدرفس

ومعنى البحترى يتمشى مع سياقه بخلاف شوقى، وعارض نونية ابن زيدون، وهو شاعر قريب الشبه بشوقى فى شخصه، وفى فصاحته، ولذلك كان قريباً منه فى المعنى والصياغة.

وعارض موشحة، ابن سهل الإسرائيلى، وهى معارضة من شعراء كثيرين قبل شوقى، أهمهم ابن الخطيب، يقول شوقى :

من لنضو يتنزى ألما برح الشوق به فى الغلس

وكتب أرجوزته المطولة «دول العرب وعظماء الإسلام»، وفيها استعراض طويل للتاريخ العربى، وتاريخ الأندلس العربية، وإن كنت أرى فيها نظماً ليس فيه من الشعر إلا الوزن والقافية، وهى من نوع النظم التعليمى الذى كتب منه أبان عبد الحميد اللاحقى، وابن مالك، وآخرون كثيرون فى نظم العلوم.

رجع شوقى إلى مصر سنة ١٩١٩ بعد خمس سنوات تقريباً فى إسبانيا، كانت كفيلة أن يكون تأثيرها أكبر فى شاعر له مكانة شوقى، لكنه كان غير مفتوح نوافذ النفس لمثل هذا التأثير الذى يمكن أن تمنحه بلد مثل إسبانيا، وأن تمنحه تجربة النفى، لكن المنفى كما قلنا أنفاً لم يكن سوى رحلة مترفة لشاعر الأمير، وأمير الشعراء !!.

لم أقصد بطبيعة الحال أن أكتب تحليلاً مسهباً عن شوقى فى الأندلس، بل قصدت أن أسجل بعض انطباعات أوحثها إلى قراءة شوقى فى أندلسياته، وأن أشرك قراء «القاهرة» الغراء معى فى موضوع له صلة بالأندلس «الفردوس المفقود» الذى أحمله بين جوانحي، قبل أن أذهب إليه دارساً مدة سبع سنوات ونصف، كنت أتذكر فيها شوقى وشعره، ولعل لهذا حديثاً آخر هو حديث الدراسة والمقارنة.

الصاهل والشاحج وكلام في الوزن

نمط من كلام أبي العلاء، غفل عنه جمهرة الناس، ولوفاء وإليه خاصة الآن – لعصمهم من أضراليل الفوضى، التي تتغشاهم في قضايا الأوزان والعروض عامة . وكلام أبي العلاء أيضاً ضرب من أدب الجدال والمناظرة وهو رجل قوى العارضة ألحن بحجته من كثيرين يطحنون قرونا، لأنه لا يذكر هذا الضرب إلا وذكر أبو العلاء في الصدارة، يأخذ الصاهل بضعب الشاحج، يلبسه قميص الكتاف، وإن تمارى .

الصاهل هو الفرس، والشاحج في أضبط الأقوال هو البغل، يدعى خنولة – وهي واردة صحيحة – لكنها مثل خنولة «تغلب» التي ارتأى الشاعر أن الزنج أكرم منها، يقص المعرى حواراً فكرياً ولغوياً لا يحسنه غيره، لسعة محصوله، وثقوب جنانه .

ونود هنا – في وجازة – أن نعرض طرائف الشاحج في ادعائه القدرة على النظم، حيث هو أسرع إلى الحفظ من المرسل، ويستظهر أبو العلاء أن بناء البيت لا يتحقق إلا بالوزن، وأن التفعيلة – مفردة – لا تؤدي هذا الوزن، وإن أدت إيقاعاً، مفرقاً تفرقة حاسمة بين الإيقاع الذي يتحقق بالأصوات على نسق ما، حتى من الطيور – الغراب والعصفور – ومن الحيوان، وبين الوزن المتحقق بالقول الإنساني في النظم، على نمط بيت الشعر السكني – وأعمدته التي تساوق أبنية الأوزان الشعرية

والحسن يظهر في شبيئين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر

ويرى المعرى على لسان الصاهل موضعاً غرارة الشاحج وغروره، أن صوت الأخير حمحمة وشحيج وكلاهما لا مسلك له في الموزونات، لأن الكلمة إذا اجتمع فيها ساكنان يتوسطانها لم يمكن أن تنظم في حشو البيت العربي إلا في

موضوع واحد وهو شاذ مرفوض، ويمضى أبو العلاء - فى حسم - فيقول :
وكذلك أكثر أصوات الحيوان لا تعتدل، ولا يمكن دخولها فى المنظوم، لأنها تقطع
الأجراس أو تمد فيكون كالذى جمع بين ساكنين أو أكثر، ألا ترى أن العصفور
أقصر أصواته إذا حكى حرف متحرك بعده ساكن، والغراب إذا حكوا صوته قالوا
غاق، وهو متحرك بعده ساكنان أو ساكنان بين متحركين بكسر القاف، كما يرى
- وهو البصير فى أزمة عمياء - أن أعمدة البيوت مساوقة لأبيات الشعر فأولها
الطويل - تتابع إلى المنهوك والأرجاز، وربما تنفق معه فى هذا أو تختلف، لكن
الخلاف عسير لأن «الخليل» ربط بين البيوت والأبيات .

فيما يتعلق بالأرجاز، جعل لأصحابها جنة متواضعة حيث قصروا فقصر
معهم، لكنهم كانوا ضابطين للمصطلح (الرجز والقريض)، وفى الرجز واشجة بينه
وبين النثر، ولذا صلح لنظم العلوم، وهى قدرة وفذاعة فى النظام العروضى
العربى، لا ينبغى التهوين من شأنها .

كما أن الحركة يعقبها سكون عند الشاحج والغراب والعصفور، تشى بأننا أمام
وزن يكاد يكون غير إنسانى هو «الخبب» أو «الأميبا» الذى يتغشى زماننا فى الشعر
الحر هو والرجز، ولا يكاد يخرج عنهما إلا فى الندرة، ولذا يستأهل هذا الضرب
من الكلام اسمًا آخر غير الشعر .

وغير بعيد، بل قريب جدًا كلام المعرى عن الإيقاع، ودعوى الشاحج إحسانه
له، عن كلام أهل زماننا عن الكلام «المسكون بالإيقاع» فيما يسمى - غلطًا -
«قصيدة النثر»، وهى دعوى مثل دعوى الشاحج - البغل - خثولة فى الصاهلة،
وإن كان المعرى يجعل كلامهم يخر على القواعد، إذا كان هذا كلامًا وكان له
قواعد أصلاً !!

ولا يتردد أبو العلاء من بسط المسائل، كأنه كان يدرى أنه يخاطب القرون،
وخاصة أهل زماننا، فيذكر ساخرًا. ضاحكًا من تراحم الأضداد : الشعر - النثر -
الوزن - الإيقاع، الشعر العمودى !! الشعر الحر !! . حيث يرى أن للشعر شرائط
تدركها الغريزة، فما وافقها فهو شعر، وما دابرها فكلام أبى عن الغريزة، فليبحث
له عن اسم آخر، وهل أفاد الإبل والخليل أن تصحب الشعراء الفرسان، تهتز للوزن

– وهو إيقاع وزيادة، والزيادة حتم واجب معلومة من الفن الشعري بالضرورة –
ومع ذلك لم يعرف لها نظم، لأنها لم تخلق له، ترى هل تتخلى السنة الشر
«المسكون بالإيقاع» أو بالعفارية عن دعاواها العريضة؟ وأن يعتصم أهل الشعر
الحر بقواعد الوزن – لا التفعيلة – أو يبحثوا لهم عن اسم آخر؛ لأنهم الفاتحون
باب الإيقاع المضروب، وسلام للشاحج من أهل زماننا المعطوب.